سلسلة

استراتيجيات الحركة الحيوية (٨)

الاستنباط الاستراتيجي

محمد أحمد الراشد



إحياء فقه الدعوة

سلسلة

استراتيجيات الحركة الحيوية

الرسالة الثامنة

الاستنباط الاستراتيجي

إيضاح الأثر الثقيل للمؤمن المهدي في تحريك الحياة

وشرح المفاصل الجامعة لأنواع الحركات ومحاور توزيعها

واسترسال في توصيف طبائع الحركة الحيوية

مع بيان كيفية استنباط الرؤية الاستراتيجية

من خلال تكامل مجموعات القيم المحدَّدة

□□ **رعاية الأمر الدعوي، وتطويره: مسؤولية مشتركة بين المجموعة القيادية، وعموم الدعاة، ولا بد من تكامل شعور الطرفين بثقل المهمة والأمانة، وتعاضد جهودهما، لتكون وفرة الإنتاج، وتصاعد الوتيرة.**

● **أما في الجانب القيادي: فإن هذا المطلب التكاملي يضيف سؤالاً مهماً إلى مجموعة الأسئلة عن الأهلية القيادية الإسلامية المعاصرة**، ويريد التطلع إلى معرفة ما إذا كانت هذه العناصر القيادية تستطيع التعامل الناجح مع ألوف من الدعاة الذين حازوا المهارات الإدارية والتخطيطية، وطورتهم مواقع الإنترنت والتقنيات المتقدمة، وحازوا شيئاً من التدريب الإبداعي، وأتقنوا أصول البحث والإحصاء والتعامل مع بنوك المعلومات؟

هذا سؤال مهم، **لأن القيادة المعاصرة يجب أن توازي تطلعات المنفذين** الذين طورتهم التدريبات المنهجية، وإذا لم تستوعب القيادات حقائق المتغيرات المتجددة: فإنها ستكون قاصرة عن مواكبة تطلعات الأجيال الصاعدة، ويحصل نوع فتور، أو ما هو أكبر، مثل الاستقلالية.

● **وأما في جانب الدعاة والأتباع: فينبغي أن نجد منهم التجرد التام، وكثرة البذل، وجميل الأخلاق، وحسن الظن بالرؤساء.** وأهم ما هنالك من صفاتهم: الذوبان وعمق الاهتمام، حتى يصل أحدهم من الارتباط بالمعنى الدعوي ونوايا الإصلاح إلى درجة قيس في عشقه ليلى، فإنه كان يقال له: ما اسمك؟ فيقول: ليلى. وإلى أين تذهب؟ فيقول: ليلى. وما مرادك؟ فيقول: ليلى!!

و"الداعية العصري" و"المسلم الحضاري محرك الحياة" نقول له ما اسمك؟ وينبغي أن يجيب: **تطوير!** ومن أين أتيت؟ فيقول: **من بنك المعلومات!** وماذا تقصد؟: فيحدد جازماً: تحريك الحياة؟ وما وسائلك؟ فيشرح: **منهجية، وإبداع، وبرمجة**، وعلم استراتيجي، **وأمزج كل ذلك بالإيمان وفقه الشرع، ثم أنتظرُ رحمة الله وأقداره الخيرية.**

❑ الإنصات الواعي لرفيف الخفقات

❑ ومبحث "استراتيجيات الحركة الحيوية" إنما هو فرعٌ من عملية "إحياء فقه الدعوة الإسلامية"، ونمط جديد محض في إيراد المعاني والتحليل النفسي وتصوير الخلجات والكوامن ودواخل القلوب، ويمتزج ذلك برصد مناظر حيوية صغيرة يحمل الواحد منها مغزى ودلالة، ومن جمع هذه الصور الجزئية يتكون المنظر الحيوي الكبير، وتتميز فيه وضمنه سلاسل ومنظومات من التقعيد الأصولي المتكون من ضم الأشباه والمتقاربات، ولكن الفكر التأملي الاجتهادي لم يترك هذا المنظر ساكناً جامداً، بل أنطقهُ وهزَّهُ ونفضَه، فكشف الحركة الحيوية التي تنبعث منه، في أجزائها النابضة، ثم في اجتماعها وتلاؤمها وانضمامها المكون لزخم التأثير. **فأتيح للقياس أن يفقه عبرة الماضي ليعرف جذر الحاضر، فيميِّز الطرقات إلى المستقبل، ويوصي بحُزمة تخطيطاتٍ ومنهجيات تختصر الجهد والزمن، وتدلف من ثنايا الحصار، وتتجنب المواجع، وتسبق إلى الفرص، بروح حُرة، وأنفاس طموحة، وأنماط إبداعية.**

● **أو أن "حركة الحياة" هي منظومة كاملة، شاملة، لها شواهدها ودلائلها التي تتكون منها حقيقة موضوعية ضخمة تامة المعنى وواضحة الوسيلة، ولكن شاء الله تعالى أن يوزع علم هذه الحركة على عدد واسع من عباده، على مدى الأجيال الإنسانية الواعية المتحضرة**، ربما مئات من كل جيل لا يبلغون الألف، من شاعر وباحث وقائد، وأحدهم يحوز علم جزء صغير من هذه الحركة يبوح به، أو تتمثل في صورة من أحوال الخلائق منظورة، وقليل هم الذين يجمعون بين عدد من الصور الجزئية التي تتكون منها سلسلة منطقية ذات دلالة كافية ضمن المنظومة الحيوية التامة، وهم الذين أتيح لهم أن يعرفوا بعض سر الحياة فملكوا مفاتح تأثيرية فيها، وتأتي محاولتنا اليوم لكشف سلاسل أوسع نطاقاً وأفصح دلالة ضمن هذه المنظومة، فنكاد أن نقارب، جمعاً لها من ملاحظات الشعراء

والساسة والفقهاء والحكماء ورجال الحروب والعلم والمال والطب، ومن مراقبة سنن المخلوقات، وأما كشف جميع المنظومة الحيوية فلم يحدث بعد، ولا أطمح أن يكون على يدي، ولكنه يتاح لرجل من تلامذتي، سيجعل من عملي الجامع مقدمة يتوغل على هدي منها، ويكون متفرغاً من الهموم التي عصفت بي وأنهكتني ويعتمد على مقدمات أخرى كتبها آخرون استفزهم هذا المبحث، فيلوح له السر، وينكشف له عِلم مدخل الصدق للتأثير الحيوي النافذ، والله ولي المتقين يعلمهم أطرافاً من أسرار الكون إذا ملكوا الذكاء الوافر.

ومن المهم أن نلاحظ أن "نظرية حركة الحياة" كما أنها محاولة لتجميع صور جزئية كثيرة، من أجل تكوين صورة فسيفسائية كبيرة للحياة: فإنها تجميع لنبضات صغيرة ضعيفة من أجل تكوين زخم حركي قوي منها.

☐ الإنسان المؤمن أثقل القوى المحركة

☐ والإنسان: ثـَقَلٌ في الأرض، يمنعها أن تطيش في حركتها، بما وهبه الله من عقل.

● وفي لسان العرب: (ويقال للسيد العزيز: ثـَقَل) (وسمى الله تعالى الجن والإنس الثـَقَلين. سميا ثقلين لتفضيل الله تعالى إياهما على سائر الحيوان المخلوق في الأرض بالتمييز والعقل الذي خُصا به، قال ابن الأنباري: **قيل للجن والإنس: الثـَقَلان: لأنهما كالثـَقَل للأرض وعليها**)[1].

أما الجن فعلمها عند الله، ولكن ثـَقَل الوجود الإنساني في الحياة مشهود، ومجموع أداء أجيال البشر ارتقى من معيشة بدائية إلى حضارة وعلوم وفيزياء تتحرش بالقمر والكواكب ولا تكتفي بإشهار ذاتها في الأرض فقط، وتولدت الحياة المتحركة واكتملت وبلغت رُشدها وثقلت أعمال الإنس، فصارت ثقلاً للأرض معنوياً، وأصبحت الأرض تحوز بذلك هوية وشخصية وكتلة من المعاني والعلاقات والثروات والقدرات وحقائق القوة، وبذلك تكون هذه التسمية الربانية للإنسان ووصفه بأنه "ثـَقـَل" هي مفتاح فهم حركة الحياة ومنظومتها.

● **لكن أثقل هذا الثقل : المؤمن الذي يهبط ساجداً معلناً "الإسلام"،** وعنوان ميزان التفريق واضح، فقد قال تعالى في سورة السجدة : "أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً، لا يستوون" ولله عباد يصطفيهم، فيخلق الإيمان في قلوبهم، فيكون أثرهم في الحياة أوفر. ونحن نسأل ربنا مراراً كل يوم أن: "اهدنا الصراط المستقيم".

(والهداية في اللغة: الإرشاد) لكن الهدى يجيء أيضاً بمعنى "خلق الإيمان في القلب"، (منه قوله تعالى: "أولئك على هدى من ربهم"، وقوله تعالى : "والله يدعو إلى دار السلام ويهدي مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيم"، وقوله تعالى: "إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء" وقوله تعالى: "فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام".

قال أبو المعالي: **فهذه آيات لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان في القلب، وهو محض الإرشاد)**[٢].

● **وبهذا الإيمان الذي يخلقه الله في قلب المهدي: يشرعُ يَفهم خلق الله لكل حركة في الحياة مهما صغرت، وأنها بعلمه وتقديره تعالى ورقابته،** كما عبر عنها بقوله عز وجل : "وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمُها، ولا حبّةٍ في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين" الأنعام/ ٥٩.

● ومن مناظر الحياة الخالدة لدى هؤلاء المهديين الذين يؤمنون بالرقابة والأقدار الربانية: منظر تعلقهم بالله، وشكرهم له، وفهمهم أنه هو الرزاق، وان إنزال المطر هو تمام فضله عليهم.

وكل عاقلٍ من الناس يقول بقلبه إن لم يقل بلسانه ما نطق به النَمِر بن توْلَب في الحمد:

سلامُ الإله ورَيْحانُهُ	**ورحمتُهُ، وسَماءٌ دِرَرْ**
غَمامٌ يُنَزِّل رزقَ العباد	**فأحيا البلادَ وطابَ الشَجرْ**

فهذه الخلجات فطرةٌ سواء محضة، بها تسكن قلوب الناس وتطمئن، فتدرج الحياة.

وهذا الشكر لله الذي يأتي في سياق وعي المؤمن لفضله تعالى : إنما هو صورةٌ واحدة ومَثَلٌ للفهم الفطري، والأمر أوسع جداً، **فإن فضل الله يتنوع وتتصاعد درجاته حتى تصل أمثلته العُليا إلى شكل توفيق رباني في التعامل مع حقائق الحياة وسياستها ومحاولة السيطرة عليها.**

● **والمسلم يؤمن بأن ما يكون منحة ربانية موهوبة من الله لبعض البشر بشكل متميز يعينهم على قيادة الحياة والسيطرة عليها: فإنه من جُملة القَدَر أيضاً، ويكون بالتالي في عداد محركات الحياة**، وكل أفعال العباد مخلوقة، فهي أقدار، وإنما المقادير المتساوية الموزعة بين جميع البشر تنشأ منها حركة حيوية رتيبة، وهي الحياة اليومية الدائرة، ولكن أفعال الراجح المتميز بوفرة ذكاء أو شجاعة، مثلاً: تؤثر في الحياة المسترسلة تأثيراً مضاعفاً وتحدث منها حركة زائدة دفاقة تخرق العُرف، وفي هذا السياق يتميز المؤمن العميق الإيمان فيكون هو "المروَع"، وهو (الملهَم، كأن الأمر يُلقي في رُوعِه) وهو (الذيْ ألقي في رُوعه الصواب والصدق، وكذلك المحدَث، كأنه حُدِثَ بالحق الغائب فنطق به)[٤].

وتصوُر هذا فرع من تصور إمكان النُبوة، فإذا آمن المؤمن بالأنبياء: آمن بإمكان أن يكون المخلص مُروَعا، والرُوعُ: القلبُ والعقل.

● **فبعض الحركة الحيوية : سَبَبُها مُباداة من مخلص مروع، فيكون تجديدٌ في الدين، وإفتاء صائب في أمر مُشكل عويص، وتشويقٌ لحُرية، وفزعةٌ جهادية، وفراسة سياسية، ودلائل منطقية، وتثبيتات معنوية، وأقل ذلك: البلاغة التي تستقصي الشوارد فتصوغها في نظرية جامعة.** وكون مثل هذه القضايا قدرية : فإن ذلك يعني أنها إيمانية، لأن الإيمان بالقَدَر هو جزء الإيمان العام، ومن ثمَ فإن من يروم السيطرة على الحياة يلزمه تعميق إيمانه، وتزكية قلبه، وتصحيح نواياه، وتكثير السجود، والقرب من الله تعالى عبر دوام المناجاة والدعاء والحمد والاستغفار، ليأمر الله ملائكته أن تكون معه، ويقذف في قلب كل مسلم أن

يكون له ظهيراً، ويمثل هذه الزيادة الإيمانية يهبط عليه إلهام ويحوز لـمعة ذكاء، بهما يتعرف على دربه ويُتاح له صواب القرار ورؤية الفرصة التي يدلف منها، فيوافي بالاستعداد الـمكافئ في الوقت الـمناسب ويجد الـمحامل ترتفع به بإذن الله، والـملائكة تهتف في أرجاء الأرض أن قد وافى نقيٌ مكينٌ يقود الرهط الصالح فاستقبلوه!!

فالأمر ليس يكفيه إعداد وتخطيط وحشد، وإنما يلزمه من الله مدد وتوفيق وتبصير، وشواهد السيرة الـمطهرة والتاريخ وافرة، ومن لـم يفهم مغزى هذه الإشارات فهو عن تناوش التأثير بعيد.

● وهذا الاعتقاد يدفع بحثنا إلى أن يكون منحازاً لأهل الإيمان، وأن تكون غايته تعليم "رائد التمكين" كيفية فهم الـمنظر الحيوي العام، والهندسة الحركية الحيوية، من أجل السيطرة عليها وتسخير حقائقها وقوانينها لصالحه.

فللمؤمن نرتاد ونجازف ونمعن النظر، لنخرج بوصايا جزئية كثيرة ننصحه أن يُضمنها خُطته ومنهجيته في العمل ومنافسته السياسية.

☐ أثر القواعد الهندسية في الحركة الحيوية والفكر القيادي

☐ ومنظماتنا الدعوية والجهادية مدعوة إلى مجاراة هذه المنهجية في صياغة المفردات في معادلات ومصفوفات معنوية دلالية تكون لها فيها مرجعية فكرية واحتكامية عند استبداد التطلعات أو طروء غموض.

إن المعنى الهندسي في التتابع والاستقامة على صف واحد: معنى جليل، وملحظ من ملاحظ صورة الحياة تعجب الرائين والناقدين والواصفين، وفي شعر للشمّاخ الغطَفاني صوّر إناث الغزلان: (وَرَدْنَ، وخَسَسْنَ بالصائد، فنفرن على تتابع واستقامة) وفي الشعر ألفاظ غريبة جعلتنا نعرض عنه، ولكن الشطر الذي فيه المعنى هو قوله:

* كما شكَّ في ثني العِنانِ الخوارزْ *

أي كما جعل الصانع الخرز في العنان (على نسق واحد) (لأن خرزة مُسَرَّد مستو) أي في سَرد.

وأيضاً شبهوا اصطفاف الأسنان بتوالي صف الخياطة، فوصف شاعر آخر (فما حسنُ نَبْتَةِ الأضراس متناسقها ، كتناسق الخياطة في الثوب، لأن الخائط يضع إبرة على أخرى، شكة في إثر شكة).[٥]

وبمثل هذا الإملاء لهذا المعنى الاصطفافي في النفس أصبح التتابع والاصطفاف أحد حلول المعضلات في كل شؤون الحياة. وابتنت الرياضيات في جانب منها على هذه الظاهرة حتى سمي النوع المعتني بها "رياضيات المصفوفات" ثم هو يتحول إلى قاعدة منطقية في التأمل والتحليل والوصف تضرب عمقاً في تأثيرها وتتحكم في طرائق التفكير وصنع القرار، مع إنه إملاء في اللاشعور، ويكون خفياً، وأصحاب النظرات العجلى الساذجة لا يفطنون إلى أثر هذه المعاني المستنبطة من ظاهرة المصفوفات، **ولكن المتنبه للعلاقة القائمة بين النفس وحركاتها الداخلية وقوانين اضطرابها وانتظامها، وبين البيئة التي تتعامل معها هذه النفس العجيبة الحساسة: يدركون عمق العلاقة ، وهي نفسٌ من عجائبها أنها يمكن ترويضها وتذليلها بتأكيد المعنى عليها، وتعاملها المتكرر مع ظاهرة التناسق والتتابع والاصطفاف يمنحها تلقائية مجاراة الظاهرة.**

● **والأمر المهم أن نتفق على أن تكون منهجية اصطناع الأنساق وترتيب القواعد والمعادلات هي طريقة العمل والفهم**، وأما تسمية وشرح هذه الأنساق فإنما يأتي تباعاً مع توالي فصول البحث، وقد مضت منه أمثلة فيها كفاية لتوضيح المقصد.

● إن هذا الحشد الكبير من صور الحياة الجزئية ، ورصد خلجات النفس وترددانها: يبقى سرداً وصفياً مع ما فيه من انتباهات تحليلية، لأنها تحليلات تبقى في حدودها الجزئية، لذلك **يلزم استثمار الكتلة الضخمة من هذه المفردات بواسطة عملية تحليلية شمولية كبرى، وتتولى ذلك "منهجية مصفوفات الأنساق"**

التي هي كثيرة جداً بحسب مقادير ذكاء وفطنة كل من حاول النظر الفلسفي والمقارنات الفكرية، فكل منهم أصاب في أشياء وأخطأ في أشياء، ويترجح حجم الصواب على الخطأ أو العكس بتأثير عوامل كثيرة أهمها الإيمان بالوحي وبحكمة فيه يعلمها الله للبشر إذا آمنوا، تختصر لهم الطريق ولا تدعهم في المتاهة، ولكن نفترض أن كل من حاول معرفة الحياة من فيلسوف أو مفكر لا يخلو من صواب مهما قل، فلجأنا إلى بعض هؤلاء كنماذج، وقرأنا بعض ما دونوه لاكتشاف النسقات التي انتهى إليها تحليلهم، وفق منهجية لنا في "تلفيق" انتهينا إليه كمخرج من التناقض الفلسفي الكثير والمنهجية الخاطئة التي تمثلت في "أحادية السبب" التي اتبعتها الجمهرة، غفلة أو غروراً، وأدى تلفيقنا إلى اكتشاف حشد من النسقات والمعادلات لو اكتفينا بالواحد منها لكان ناقصاً معيباً لا يقوم به تفسير مقنع لحركة الحياة، **ولكن إذا فهمناها على أنها كتلة تحليلية واحدة وموازين متكاملة متعاضدة فإنّ علمنا بحركة الحياة يوشك أن يكون راسماً لتخطيطات "الصورة الحيوية النابضة"** التي تعوزها ألوان وظلال تؤخذ من بحوث أخرى متممة، وهذه النسقات كل منها هو صَفٌّ وتنظيمٌ وترتيب للحقائق والتحليلات الجزئية في إطار تحليلي عام، **ثم حين نرتب الأنساق معاً على اختلاف قائليها ينتج من تكاملها نسق أكبرُ وهنا يكمن إبداعٌ وذوق في شكل هذا الترتيب ومنهجيته هو الذي يولد تعدد الأنساق الكبرى** واختلاف المفكرين في فهم حركة الحياة وطرائق استثمارها، وأقرب مثال لذلك: قواعد علم أصول الفقه واختلاف الفقهاء في الخروج من تزاحمها ، والمؤمن أبداً أهدى من الفاسق.

❑ المفاصل الجامعة لمفردات الأنساق ، ومحاور التوزيع

❑ وبقليل من اللمسات التي فيها تحليل وتعليل: أستطيع أن أفهم وأزعم أن قوانين حركة الحياة يمكن أن تتوضح جداً وتستبين مغاليقها إذا خرج الناظر من الدائرة الثنائية القائمة على معادلة الإيمان والشرع ، الجامعة بينهما: إلى دائرة أوسع،

معادلتها عشارية المدى ومفاصلها: "الإيمان، والشرع، والقَدَر، والنفس، وآيات الآفاق، وآيات العلوم التطبيقية، والحكمة التأملية، والتجربة، وآثار المادة، والمعارف" وهذا ما هو ابتداع في الدين، بل هو إدخال لبعض أجزاء الإيمان في التقويم بمقدار أكبر مما يفهم به المسلمون هذه الأجزاء، وكأن هذا المقدار الأهم هو مطلب الشارع الذي لم تحتفل به أجيال المسلمين بمقدار يوازي تأثيرها الحاصل في الحياة.

● **فالقدر جزء من الإيمان كلنا نؤمن به، لكن على مذهب التسليم به والإذعان لحكمه، لكني أجد مذهباً آخر فيه يستثمره، وهو ملاحظة جريانه في يوميات الحياة، وتتابع وروده، وأشكاله، وحكمته، وتمييز الخيري منه والشروري، ودلالته على استمرارية الرقابة الربانية على حركات عباده وسيطرته على هذه الحركة بكل دقائقها وتفاصيلها**، فهذا كله من الفهم الذي يتعمق به الإيمان، وفي نفس الوقت يكشف عن قوانين ومعادلات يسلكها القدر في حلوله وجثومه على الناس، وقد تحتاج هذه الملاحظة البشرية لمسارات القدر بعض الذكاء العالي، والمران، والوقوف عند القرائن، ولا يعلمها كل مسلم، وليس في ذلك غرابة، فإن الفقه الشرعي لا يدركه كثير من المسلمين، وإنما يفتيهم المفتي به، وكما يوجد بين الفقهاء من يصل إلى مراتب من الاجتهاد: **يوجد من يفهم القدر بنوع اجتهاد** وربط بين أجزائه ومظاهره.

● **وكما أن فصول القدر وقضاياه تكون يومية أو فصلية أو تستطرد حكاياته لمدى سنين: فإنه أيضاً يمكن أن يكون على مدى تاريخ طويل وألوف سنين**، وأوضح مثال لذلك: قصص الحضارات واللمحات القدرية في إضافتها المدنية والعلمية، وقصص النبوات، وآية "وجئت على قدر يا موسى" عنوان فقط لمسلسلات قدرية كثيرة في توجيه حياة البشر، **وآثار إبراهيم عليه السلام استغرقت حقباً تاريخية كاملة، فصلها الأول كان مسلسل نبوات بني إسرائيل والملوك من ذريته، وفصلها الثاني كان الانتقال بنبوة عيسى عليه السلام إلى العالمية والخروج من خصوصية الدائرة اليهودية، وفصلها الثالث حصل بانتقال**

النبوة والملك معاً إلى ابن إسماعيل محمد صلى الله عليه وسلم، وفصلها الرابع مستمر في قيام إسرائيل ولما يصل النهاية، التي هي قريبة بإذن الله.

● **وأما النفس** فالإشارة إليها أوضح ما تكون في آية "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها" مع إشارات كثيرة متنوعة تتحدث عن أحوال للنفس شتى، وما زالت محاولات العلماء مسلمهم وكافرهم دائبة لاكتشاف هذه الأحوال وما يليق لها من تعديل وعلاج، وليس إلى كمالٍ من وصول، كأنها سِرّ ولا يمكن الوقوف على قوانين حركاتها وتصرفاتها بصورة تامة أو مقاربة للتمام مهما كان من استقراء ورصد وتحليل، لكن الوصول إلى منزلة متقدمة في ذلك ممكن لمن يهتم ويطيل التأمل ويربط المقدمات بالنتائج ويقيس، ولهذا يكون مثل هؤلاء أوفر علماً بحركة الحياة وكيفياتها ممن لم يهتم بالرصد النفسي ويبقى في دائرة الشرع وعموميات الإيمان فقط. ومن هنا نعلم امتياز الغزالي والراغب الأصبهاني مثلاً على غيرهما في هذا الباب، لأنهما تناولا "النفس" تشريحاً وتحليلاً فيما كتبا، فكانا أعلم بحركة الحياة من غيرهما، مع تساويهما في الفقه العام مع غيرهما، وهذه ملاحظة هامة لم يفطن لها أكثر الإسلاميين ممن يريدون تحريك الحياة والسيطرة عليها، فيعتمدون الفقه الشرعي ومنازل الإيمان دون الوقوف طويلاً عند منهجية دراسة النفس على نمط هذين الإمامين الجليلين، وثالثهما في ذلك الهروي في منازله، ثم رابعهما ابن القيم في مدارجه الشارحة، فإنها منهجيات بعضها من بعض، وإن أخطأتْ في شيء وتكلفت: فقد أصابت في أشياء، وهي في مجملها أقرب إلى الدقة والصدق ، لأنها تعتمد الحقائق الإيمانية والموازين القرآنية أصلاً لتخريج الملاحظات النفسية وتفسيرها، وفي ذلك ما يقذف الطمأنينة في قلوبنا، لأن الاستدراك على الخطأ لابد أن يحصل بشكل ما من خلال هذه المنهجية المرتبطة بالتأويلات الإيمانية، ومن هنا يسوغ أن نعتبر المدونات الصوفية مصدراً من مصادر التعرف على علم النفس الإسلامي مع ما فيها من بدع تختلط بذلك ، لأن المنهجية التدقيقية تتيح التنقية من الشوائب والأوهام.

ومكمن الأهمية في اعتبار الجانب النفسي ركناً في معادلة حركة الحياة أنه يقودنا بالتالي إلى فهم آثار الجمال والفن والأدب والإعلام في تحريك الحياة، لأن هذه الآثار نفسية بالدرجة الأولى، وهي انعكاسات عاطفية ومعنوية للصورة أو الكلام، ومن ثم فإن دراسة النفس ستعني إدخال هذه المعرفيات ضمن الاستعمال واستخدامها في محاولات التأثير، وذلك يقود إلى توظيف الكم المعرفي ضمن تحريك الحياة، وبذلك تكون معادلة التحريك أضخم وأكبر من حجمها الظاهر الذي تختصره الألفاظ الجامعة.

● **وأما آيات الآفاق: فإن تتبعها وإعمالها والاتعاظ بها وارد في آية صريحة: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم»** وهي حث لمعرفة علم النفس أيضاً، وآيات الآفاق هي حشد من عجائب وغرائب ودلالات ومعان تتحد في صور جزئية هي ألوف في العدد تتركب من ترتيبها وتجاورها صورة كلية للحياة تعين مهندس حركة الحياة على معرفة طريق السيطرة بشكل قريب مما تمنحه الخارطة الجغرافية للرائد من معرفة دروب التقدم والوصول إلى المبتغى، وذلك عن طريق **تجميع ما يوحي به كل منظر جزئي من معنى جزئي تتركب منه ومن أمثاله الكثيرة قواعد وموازين في السلوك الفطري الطبيعي** الذي خلق الله الإنسان والكائنات عليه، وتعين على ذلك مُكنة القياس، والاشتقاق الاجتهادي، بأن تكمل الناقص بمعنى مفترض يدل السياق المعروف عليه، **ومن هنا ينشأ الاجتهاد في علم آيات الآفاق** ولا تكون مجرد مناظر مرصودة فقط، بل نستدل بالمرصود على خفي تتم به الصورة وألوانها وتوزيعاتها، وطاقتنا أقصر من أن ترصد كل صور أجزاء الحياة، بل بعضها، وهنا تكمن أهمية هذا القياس والاشتقاق.

● **وآيات العلوم شأنها آكد وأمضى**، ففي الفيزياء والكيمياء والرياضيات، وما يتبعها من علوم أخرى ألوف حقائق، وعلاقات، وقوى تأثير، ينبغي رصدها بنظر كلي وترتيبها واستحضار نسقاتها للوقوف على جانب من أنماط الحركة الحيوية، فالتضاد والتنافر، وتوليد الفوتونات الضوئية، والحركة الموجية، وسلوك الدقائق

الذرية، والاتحاد الجزيئي، وأمثال ذلك: **كله جذور لعلاقات إنسانية في الصراع والسلم والتركيب والبناء والاستقلال والإلحاق والالتفاف الموقت، وتغيير الحال، وتوليد الفرع، والتعادل والاتزان والاستقرار، والإقلاق المستفز**، في ظواهر أخرى تقرأ فيها المعاني من خلال حركات المباني، وهذه كلمات غامضة، لأنها عناوين، لكن الشروح والشواهد عند البحث التفصيلي تجليها وتوضحها.

ومثيل لها مدلولات علوم الآلة والصنعة الإدارية والفقه اللغوي والمنطقيات والفلسفيات: كلها لها تجارب وطرائق في التعامل الحيوي ترجح مقدار الصواب الذي فيها على جوانب الظن والتخمين ، وأصبحت طرائق وموازين في التعامل وتحريك الحياة والسيطرة، ورصد صوابها ووضعه في صعيد واحد: يجعل رائد تحريك الحياة كأنه لاعب شطرنج يتصرف بحُرية ووفق وفور ذكائه يكون تفوقه.

فبجمع كل أطراف المعادلة الحيوية هذه: يتاح لك التمكين.

□ الطبائع العشرون لولادة الحركة الحيوية

□ ثم إن الحركات لها طبائع أودعها الله فيها حين خلق الحياة واختار لها تفاصيل معاني الحكمة التي قصدها وأبعاد الفطرة التي فطر الخلائق عليها وأنماط عملها ونفوذها.

ومحرك الحياة لا يستقصي خبر هذه الطبائع فضولاً، وإنما مُرشح للتعامل معها وتعاطي العلاقة وإنماء المفيد له منها وكبت الضار، ونحن ندرسها كجزء من علم حركة الحياة، لنعلم مكانة هذه الطبائع من صفات أخرى في المنظر الحيوي العام، فتكتمل الرؤية، ونكون أقدر على استنباط المعاني والدروس والإشارات التخطيطية الكامنة في الحركات الحيوية.

● **وطبيعتها الأولى: أن هذه الحركة تعتمد الطاقة بشكل رئيس**، و(أشكال الطاقة المختلفة، من ميكانيكية وكهربائية وحرارية: واحدة في الأساس، وأن في الإمكان تحويل إحداها إلى الأخرى) كما هو الأمر في القانون الفيزيائي المشهور

الذي وضعه "جول" منذ ١٨٤١ واقترح أن نقيس الطاقة بوحدة قياس تتناسب طردياً مع مقاومة السلك مضروبة بمربع التيار الكهربائي.[٦]

وتحويل الطاقة يعني أن تصورنا لمعنى "الحركة" في الحياة يجب أن يكون أوسع من شكل النبض فيها، وأن الصور الساكنة الصامتة ذات المعنى الكبير الواعظ الذي يترك الأثر في النفس أو يقود إلى حقيقة تخطيطية وتنفيذية تؤدي إلى نوع سيطرة: هي صور من حركة الحياة أيضاً رغم صمتها، لأنها مملوءة محشودة بهذه المعاني المؤثرة التي هي "طاقة" بإمكانها التحول من شكلها المفعم المخزون إلى صورة ميكانيكية تصول وتجول، كأنها "بطارية" مشحونة قابلة للتحول إلى ضوء أو تشغيل آلة، وهي ظاهرة المركم الحراري أو الكهربائي لخزن الطاقة ثم إعادة استعمالها.

وهنا تأتي براعة محرك الحياة في حيازة طاقة، وخزنها، لاستعمالها في موسم آخر بشكل مكثف يؤدي إلى تفوق أو حسم، كأنه نملة تستعد لشتاء بارد فتجمع الغذاء.

● وهذا الفهم يؤدي إلى فهم طبيعة ثانية عنوانها: "الحركة الساكنة"، فإنّ (الأسدَ يُهابُ وإن كان رابضاً.) كما قال ابن حبان[٧].

وفي العالم السياسي والتنافسي: تنفع هذه الظاهرة، والتلويح بالقوة يُغني عن استعمالها في أكثر الأحيان، واستعراض القوة والرصيد والأنصار يردع المقابل، وتلك حركات ساكنة لكنها مُفعَمة.

● **والطبيعة الثالثة مشابهة، وهي تتمثل بصرامةٍ**، واسم واضح المدلول مقترن بتاريخ من اعتياد نمط معروف من العزيمة، وقد تكون الحركة نظرة عين فقط، تُدلي بمعنى، وتكون لها رهبة، كقول شاعرٍ لأبي دُلف قائد الجيوش العباسية:

كَرَّات عَينِك في العدا

تُغنيك عن سَلِّ السُّيوف[٨]

فهي نظرة حزم، تُغني عن تهديد بلسان ونشر سلاح، وهي أمر صامت وتحريك بلا حركة.

● **وطبيعة رابعة للحركة الحيوية: أنها قد تحتاج مرحلة سلبية سكونية طويلة لكي تنبض، في أثنائها يكون التهيؤ النفسي، وانتظار تبدل الظروف المحيطة بحيث تتغير المعادلة الكلية ويُحرم المقابل من العوامل المساعدة التي كانت تعينُه على النجاح،** وذلك معنى قول من قال: (الصبرُ حيلةُ من لا حيلة له)، فهو "حيلة"، وذلك يعني أنه إيجابٌ وتدبير وتحريك وسبب إنتاج، ولكن من شأنه أن يمرّ بمرحلة سلبية.

● **وطبيعة خامسة تجعل ورود حركات اليُسر راجحاً ومتوقعاً جداً بعد كل عُسر.** ودليلها التجربة المستحكِمة التي تواطأ الناس عليها، والتي يذكرها الشاعر ابن زنجي البغدادي:

أقول للنفس: صبراً عند نائبةٍ
فعُسرُ يومِكِ موصولٌ بيُسرِ غدِ (٩)

وقول الشاعر:

وما شدةٌ، فاصبر لها إن لقيتَها
بدائمةٍ إلاّ سيَتبعها يُسرُ

حتى أن أديباً ألّف كتاباً في "الفرج بعد الشدّة".

وقال أمية بن أبي الصلت أيام الجاهلية: لا تَضيقَنَّ في الأمور، فقد تُكشَفُ غمّاؤها بغير احتيالِ، ربما تكرَهُ النفوسُ من الأمر له فَرجَةٌ كحَلِّ العِقالِ.

ومن تعابيرهم في عدم دوام الحال: (لو دخل العُسرُ جُحراً: لدخل اليُسر عليه).

وقولهم: (لن يغلب عسرٌ يُسرين): تأويلاً للآية "فإنّ مع العُسر يُسراً، إنّ مع العُسْر يُسراً".

● **وطبيعة سادسة لها أن تحركها يمكن السيطرة عليه، وأن صاحب الحركة قد يختار تعتيقها وتسكينَها فتخمد جذوتها الظاهرة وتبقى جذوتها الداخلية الخفية تُمدها بالحياة حتى يرى بَعثَها من جديد.** أي أن الحركة ما دامت تنبض فإنها

تكون محسوسة، مُعلَنة، جاهرة، حاضرة دون طلب، فإذا رأى صاحبها أن الكتمان أليَق بها: صار أصوبُ أن يحبسها، ويمنع حريتها، ويجعلها ساكنة، على مذهب الشاعر الذي يقول في وصف سره[10]:

خشيتُ لساني أن يكون خؤوناً

فأودعته قلبي، فكان أميناً

فقلتُ: ليخفى دونَ شخصي وناظري

أيا حركاتي: كُنَّ فيَّ سُكونا

والشاهد في الشطر الأخير أنه أمر الحركات أن تسكن فسكنت، لأنه رأى الكتمان أليَق.

● **وحالة اللهف تجعل نفسَ الملهوف حيادية مستعدة لأن تُقاد، وهي طبيعة سابعة للحركة**، مثل حالة اللهف لمعرفة الوجهة عند الضال التائه: تكون سبباً لجعل نفسه مستعدة أن تُقاد، فيتخلى أولاً عن كبريائه، ويبرأ من علمه، ويصير في حالة حياد تام وشعور سلمي، من أجل أن يُنقذ نفسه من ورطة وقع فيها، ويتطور هذا الحياد ثانياً إلى تبعية لمن خرج يسأل عنه ويريد نجدته، فيستسلم. وهذه الحالة هي التي اكتشفها الشاعر فقال[11]:

ويُصيخ أحياناً كما استمع المُضلُّ لصوتِ ناشد

ومعنى هذا التشبيه أن الشخص يكون أحياناً في بيته أو في السوق بين الناس، لكنه حائر مُشتت الفكر، فيصيخ ويُذعن لناصح ينوب عنه في التماس المصلحة له، وهذا **يحدث عند الأزمات والنكبات والأحوال القَدَرية الثقيلة الوطأة، وبعد الحروب والفتن العامة وانتكاسات الاقتصاد، فتحصل حالة فراغ تسمح لفئة قيادية ذات نظر أن تبشّر بمنهجها وأفكارها واستنتاجاتها، فيُصغي لها جمهور يتبعها، وذلك يجعلنا نفهم بالتالي أن النفس الجماعية المركّبة إنما هي أصداء ونتاج للأنفس الفردية، أي بمعنى آخر أن هناك في الحركة الحيوية فرصة لتشكيل نفس واحدة جماعية هي محصلة**

أنفُس جزئية كثيرة، وبخاصة عند المنعطفات الحاذّة التي تـنـزل بالبعض من درجة الكبرياء إلى درجة الحياد وقبول الإملاء، فيتصدى مبادر، فيكون تيار يُتيح تطور بعض أفراده إلى تنظيم يلتمس تحالفاً يزيد تأثيره، فتتحرك الحياة.

بل هذا السياق التحليلي يكاد أن يكون هو أهم ظواهر الحركة الحيوية وأبرز طرائق ولادة الحركة الحيوية الكبرى، ولولا التباين بين العقل الراكز والعقل التائه لجمدت الحياة، ولولا التفاوت بين القلب المطمئن والقلب القلِق لما حصل تطورٌ وتداول للأيام.

● **الطبيعة الثامنة: إمكان نشوء حركة إيجابية من حركة سلبية**. على سبيل التحدّي، أو التعويض، كمثل الحسد: تتحداه عملية إثبات الحقوق من المحسود، أو ردة فعل في شكل تكوين الذات الخاصة المعاندة.

وكان إسحاق الموصلي قد درّب تلميذه زرياب على الغناء وتعاطي الأدب، حتى نال إعجاب هارون الرشيد، فغار منه وبدأ يحسده، وقال له فيما ذكر المقّري "إن الحسَد أقدم الأدواء، والدنيا فتانة، والشركة في الصنعة عداوة لا حيلة في حسمها"، ثم هدّده وطلب منه ترك بغداد، فرحل إلى قرطبة وحظي بمكانة عند عبد الرحمن بن الحكم، ونشر فنونه في الأندلس، وعلّمهم الكثير من الأذواق وأنواعاً جديدة من الطعام والملابس وآداب المعيشة، وأوغل في التأثير في المجتمع الأندلسي.(١٦)

وهذا شأن كثير من المهاجرين الذين حَبَستْ ظروفُ بلادهم إبداعَهم، فوجدوا في دور الهجرة مُراغَماً كثيراً وسعة، ولربما تحصل هجرةٌ داخل هجرة، كالذي طرأ عليَّ، فقد خرجتُ من العراق مضطراً في أعقاب محنة، فوجدتُ في الكويت ملاذاً وراج سُوقي، فجبهني حَسَدٌ حركتي إلى الإمارات، فصعدتُ، فسُجنتُ، فهاجرتُ إلى السودان، فلوحقتُ من ظالم العراق، فلجأتُ إلى سويسرا حتى انكشف حال بلادي، فرجعتُ، فلم أجد رجالاً يشترون، وحاصرني الغموض، فاستأنفتُ الهجرة، وتلك سلسلة حركات، من خلال ذبذباتها: ميّزت "همسَ النبضات".

● **الطبيعة التاسعة: أن الحركة لها مراحل نمو وخلْق وتمام، تجانساً مع سُنن المخلوقات**، وحين تكلم القشيري عن أحوال القلوب وارتقائها إلى مقامات الإيمان المتوالية الجامعة لأنواع الخير والتألّه وصناعة الثقة واليقين: شرح وبيّن **أن الأحوال أولها كالبروق، قيل: فإنْ بقيَ: فحديثُ نفس**، ولكن الأصح أنها تبقى، فإذا لم تدم فهي لوائح، وبَوادِه، فإذا دامت سُمّيت حالاً، وقبل ذلك هي: طوارق، كما في الرسالة[١٣].

ولسنا نأبه لتكلفات الصوفية وحومهم في هذا حول أشياء لا يشهد لها الشرع والنص، ولكن مُرادنا التنبيه على **تطور أمر الخاطرة من مجرد طارقة لائحة إلى حال مستديم، فهي تتولّد بهذا التسلسل، فتكون الحركة تالية للفكرة عَبر هذا النسق النامي.**

وهذا ليس حديث لهو، ولكنها **دعوة لرجال التربية أن تكون أعمالهم مبنية على هذه المنهجية التنموية التي تكتشف البذرات وصغار المعاني والبراعم، فترعاها، وتضع لها خطة تكبير وتكثير وإنضاج وإدامة، وذلك هو جانب من براعة التحريك**، فالفيزياوي يلتقط حركة ضامرة ضعيفة، يضاعفها من خلال ذراعٍ وعَتَلة، فتكون ظاهرة العزوم، فيتناول القوة الوسطى الناتجة ويعيد تعريضها لظاهرة الذراع الذي يضاعف المقدار، فتتولد قوة أعظم، وما يزال يحاول ويقيس حتى تَبدي حساباته الكفاية وترشيح القوة المتعاظمة لإحداث النقلة التأثيرية، فيُطلق سراحها لتضرب في الأرض وتملأ الحياة تغييراً.

● **الطبيعة العاشرة: استفادة الحركة من الحقائق الهندسية والرياضية وتضاعف حجمها وتأثيرها.**

وقوله تعالى: «كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين، وما أدراك ما عليون»[المطففين/١٨،١٩].

(أي: في أعلى الأمكنة) و(عليون: ارتفاع بعد ارتفاع)[١٤].

وهذا بُعد جديد وملحظ هندسي نادر.

ومثل ذلك: البُعد البعيد.

وهو في رجز العجاج الشاعر[١٥]:

لقـــد غـــزا ابـــنُ معمرٍ حين اعتَمَرْ

معـــزىً بعـــيداً، مـــن بعيدٍ، وضَبَرْ

ضبر: جَمع قوائمه ليثب، واعتمر الأمر: أمّه وقصده.

فكأن الشاعر رأى ابن معمر جاء من مكان بعيد ويريد مواصلة الغزو لمكان بعيد آخر، فهما بُعدان.

وهذه الحركة التصاعدية هي التي مَلكتْ روح عمر بن عبد العزيز رحمه الله فاستبدت به حين أخبرنا أنه ما زال في حياته يرتقي من طموح يناله إلى طموح يأمله، ثم قال: (لي نفسٌ توّاقة، تاقت إلى الجنة، فأعينوني.)[١٦]. فهذا التصاعد جَعلَ حركات حياة عمر.. دائبة لا تفتر.

● وطبيعة أخرى: أن هذا التوجيه الهندسي المحفز للحركة: قد يكون دائرياً، فكذلك رآه الشاعر المراقب للموت فقال:

والنـــاس فـــي غَـــفلاتـــهم

والمـــوتُ دائـــرةٌ رحـــاه

يطحن، فتصوير الحركة هنا دائري، وجاء هذا التدوير في انطباع الناس من كون الموت بعد سياحته وتجواله في المجتمع يعود إلى نفس النـقطة فينال ابن الميت الأول، ثم يذهب ويعود كي يصرع ولداً آخر للأول، ثم يذهب ويعود ليحصد أحفادهم، في عملية لا تـقـف، فكأنه «الرحا» التي تدور.

● أو قد تكون الحركة تمضي إلى أمام من دون التفات، وهي طبيعة أخرى يكشف عنها قول الشاعر الشنقيطي عبد الله العلوي:

وقارض همومَ النفس بالسيْرِ والسُرى

وذلك علاج نفسي حاسم للهموم التي تؤذي النفس وتكاد أن تقعد بها وتعكرها، فهو يوصي في مثل هذه الحالة بإشغالها والخروج إلى عمل يلهيها لتنسى

الهمّ والأحزان، وأن يسير ولا يتوقف مدارياً لآلامه، بل السكون يزيدها، وليتحرك حتى لو كان ذلك ليلاً، وهو معنى السَرى، لأنّ الجمود باب الوسوسة، وبذلك يكون التحرك الحيوي ظاهرة صحية مطلوبة مرادة، وهو الأصل، والوقوف يخالف الفطرة.

• **وفي الطبيعة الثالثة عشر: نلمس انتقال الحركة من محرك أكبر إلى محرك أصغر أو جملة محركات صغيرة:** وتلك ظاهرة من ظواهرها، ومثال ذلك أوامر الرؤساء تُحال إلى الوزراء للتنفيذ، وتتسلسل تنازلاً مروراً بمدير إلى معاونين إلى جند أو موظفين، فتظهر في عالم الواقع، وذلك شأن الدول والجيوش والأحزاب والتنظيمات والأعمال الكبيرة كلها، وعلى ذلك قوام الحياة، وهذا هو الذي أوجب التخطيط في الدوائر الفوقية، وعلوم التنفيذ في الدوائر التحتية، وبالتكامل بينهما تدور الحركات في مداراتها، فتكون كُتل الحركة الكبيرة المؤثرة وطرائق توزعها في المكان والزمان، وتتأسس لذلك مفاصل لهذا التوزيع، وفي هذا التكامل يقول الشاعر:

لــم تُـغنِ عــن أحـدٍ سماءٌ لم تجد

أرضــاً ولا أرضٌ بغـــير ســـماء

وبؤرة الملاحظة: أن الحركات لا تكون مُفردة دائماً، بل شطرها يكون على شكل "كُتلَة حركية" ضخمة يأمر بها متسلط نافذ الأمر، فيتصدى من يطيعه للتنفيذ في آن واحد، فتولّد ضخمة فجأة، أو بتدرج مترابط، وتغيرات الحياة الكبرى تُعزى إلى هذا النوع من الحركات، ومن هنا تولدت أهمية ضبط هذه الحركة الكبيرة الواسعة ووضع هندسة لها.

هذا ليس معناه الزهد بآثار الحركات الفردية، التي لا تسندها تنظيمات حكومية أو حزبية، لأن الحركات الفردية مرشحة لأن تكون عامة أيضاً إذا كانت صنعتها وصياغتها مُحكمة ماهرة، كأن تكون عملاً أدبياً أو فنياً أو فكراً مستوفياً لضوابط المنطق، وذلك لأن الله أودع في الإنسان "نفساً" و"عقلاً" يستقبلان ما

يحركهما، وبهما يكون شيوع الحركة الفردية، كمثل إذاعة تُرسل، فأيما شخص عنده أداة استقبال فإنه يلتقط البثّ، بمعنى أن الحركة الفردية ستكون مقلّدة من قبل كثيرين يقتنعون بها فتشيع، كمن يستنسخ شيئاً.

ومثل ذلك: العصبيات بالحق وبالباطل، التي تجعل أتباع رئيس يمتثلون أمره، كما قال معاوية يصف عَدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه. (هذا الذي إذا غَضِبَ: غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيمَ غضب!).

فالحركة هنا جامعة وكُتلة كبيرة، لا تبقى فردية.

فالعصبية العائلية والعشائرية والقومية من أظهر محركات الحياة، وكان قد عبر عنها صفوان بن أمية يوم هوازن وقد كان حديث الإسلام، فأسف لهزيمة المسلمين وقال: (لأن يَرُبّني رجلٌ من قريش أحبُّ إلي من أن يَرُبّني رجل من هوازن)[١٧].

يعني أن يكون رباً فوقي وسيداً يملكني أو يحكمني، فهو وإن لم يتمحض ولاؤه الإسلامي إلا أنه يفضل محمداً صلى الله عليه وسلم على الهوازني.

فهذا نمط من التحريك السياسي والولاء الذي أساسه الانحياز، ومعنى ذلك أن الحركات الحيوية ليست كلها واعية مدروسة أحيلت إلى محكمة العقل فحكم لها بالمرور والنفاذ، بل كثير منها تُحركها العصبيات، مثلما أن بعضها تحركها النفس العدوانية.

● **ومن طبائع الحركات: أنها قد تخرج عن حدّها فتكون شديدة مضاعفة،** وعندئذ تسمى الأزيز. قال في اللسان: (أزّه أزّاً، وأزيزاً: مِثل هَزّه. وأزّ يَؤُزّ أزّاً، وهو الحركة الشديدة.)[١٨].

● **و"الفجائية" طبيعة أخرى لبعض الحركات، إذ تنهال مثل السيل،** وتكون كثيفة، من دون مرحلة تصاعد، أو تتصاعد بشكل سريع.

مثال ذلك: أن يبقى بعض ما مضى سراً لا تدري خبره، فتظل صورة الحياة في بُعدها الماضي ناقصة، ثم تكتمل فجأة بوثيقة تُكتشف، أو بكتُب، أو بحل لغز اللغة

كلها، كما حصل للمستشرق راولنسون ١٨١٠-١٨٩٥ الذي (وُفِّق إلى حلِّ رموز الكتابة المسمارية Cuneiform عام ١٨٥٧، مما ساعد الباحثين على فهم تاريخ الشرق الأدنى في عهد البابليين والآشوريين فهماً أفضل وأوضح.)[١٩].

ومثال ما يتصاعد بسرعة: معظم الاكتشافات العلمية والكشوف الجغرافية الكبرى التي أتاحت تطور الحياة بسرعة وتوالدت منها منظومات تحريك جبّارة نقلت الناس والدول والحضارة إلى أوضاع جديدة.

ففي التاريخ القديم كان اكتشاف الإنسان للنحاس، واشتقاقه البرونز منه: قفزة كبيرة في تطوير المدنيات وعموم الحياة. ثم كان اكتشاف الحديد قفزة ثانية كبرى بلغت ذروتها في تمكين الإنسان من إنتاج الحديد المطاوع الذي يقبل الطَّرْقَ والتشكيل والصياغة، وكانت مِنحةً قَدَرية من الله للناس، بدليل الآية الكريمة: «ولقد آتينا داودَ منا فضلاً، يا جبال أوِّبي معه والطير، وألنّا له الحديد، أن اعمل سابغات وقدِّر في السرد واعملوا صالحاً، إني بما تعملون بصير.»سبأ/١٠-١١

وأما في التاريخ الأقرب والحديث والمعاصر فيمكننا أن نلحظ جُملة نقلات مهمة ومفاصل تطورية عظيمة، منها[٢٠]:

ما بين ٩٠٠ إلى ١٠٠٠ للميلاد: اختراع البارود.

١٤٣٦ اختراع الطباعة بالحروف المنفصلة وبداية شيوع الثقافة.

١٦٠٦ اكتشاف أستراليا بعد اكتشاف أميركا وتزود بريطانيا بمصادر قوة ومال.

١٦٣٧ جهر ديكارت بفلسفته وبداية عصر التوسع في التداول الفلسفي.

١٦٤٢ وفاة غاليليو، ومولد نيوتن، وانطلاق عصر العلم الحديث.

١٧٠٥ اختراع الآلة البخارية وبداية عصر الصناعة الحديثة.

١٨٠٠ البطارية الكهربائية وبداية منظومة الأجهزة الإلكترونية.

١٨٠٣ القاطرة وحدوث نقلة في طبيعة النقل البري.

١٨٣٧ التلغراف، وسرعة وصول الأخبار، وزيادة سيطرة الدول على أراضيها.

١٨٣٩ التصوير الضوئي، وحفظ الذكريات.

١٨٦٧ الديناميت، وحصول تطور في الحروب وشق الطرق.

١٨٧٦ التلفون، وتعميق العلاقات الاجتماعية وتسهيل وتسريع التجارة.

١٨٨٨ السينما، والتلاعب بمشاعر الناس وترويج الأدب، وتوثيق الحوادث.

١٨٩٦ الراديو، وبداية الثورة الإعلامية.

١٩٠٠ بدء فيزياء الكم.
١٩٠٣ الطائرة واختصار المسافات والزمان، وأشكال حربية جديدة، وبداية عصر الفضاء.
١٩٠٥ النظرية النسبية.
١٩٢٤ التلفزيون وإتمام سيطرة القيادات على مفاهيم الناس ونفوسهم وأذواقهم.
١٩٢٧ مؤتمر سولفي وبداية العصر الذري.
١٩٤٢ الكومبيوتر وثورة المعلومات والتصاميم وفتح مغاليق الحسابات.
١٩٤٥ القنبلة الذرية وبدء آخر الزمان.
٢٠٠١ إتمام اكتشاف الخارطة الجينية ومعرفة الإنسان أسرار خلقه.

فهذا رصد لحركات حيوية كبرى تولدت منها منظومات تحريك، وكلها حدثت يوم حدوثها بشكل تصاعدي سريع أقرب إلى وصف الفجائية، وتبدلت أشكال الحياة بعدها، وتجددت علاقات ومعادلات.

- **الطبيعة السادسة عشر: أن معاكسة الفطرة تولّد الحركات السلبية**، أي على نقيض الطبيعة الأخرى التي تتولد فيها حركة إيجابية من سلبية.

ومن الفطرة: اللبث في الوطن، مثلاً، فأيما شخص يتغرب ويبعد عن سربه وأترابه وأهله والمناظر التي يألفها: يملكه الشوق والحنين، ويستوحش، ويتلفه توارد الذكريات، وكل ذلك سلب.

حتى تساءل ابن عبد ربه أن: (هل على الأرض غريبٌ نازح الدار بعيد المحل، يُغني بشعر علي بن الجهم:

يـا وحشتـا للغريب في البلد النـ
ـازح مـاذا بنـفسه صَنَـعا
فـارق أحبابـه فـما انتفعوا
بـالعيش مـن بعـده ولا انتـفعا
يـقولُ فـي نـأيه وغـُربته
عـدلٌ مـن الله كُـلَ ما صنَعا

إلا انقطعت كبده حنيناً إلى وطنه، وتشوّقاً إلى سكنه؟.)(٢١)

● **وطبيعة أخرى في الحركات: أن الفاعل إذا لم يتقنها ويضبط مقدارها ومسارها فإنها تتحول إلى حركة سلبية ضارة،** فكما أن الله خلق كل شيء بقَدَر، أي بمقدار وعيار وهندسة وحساب وحكمة: فإن الإنسان مُطالَب أيضاً أن يعمل أعماله بمقدار ووزن وتخطيط، وبدون ذلك يكون الاختلال.

وكما أن الناس: رجلٌ ورُجَيجيل، ورجرجة: فإنّ أهل كل صنعة طبقات تتفاضل.

فقد قسم نُقّادُ الأدبِ الشعراءَ إلى خِنذيذ، أو كما يُقال: المفلّق، ثم شاعر، وشويعر، وشعرور، ومتشاعر.

ومَن يحرك الحياة: مُحَرِّك، ومحروك، ومتحارك، وحارقٌ يحرق الأخضر واليابس ويرتكب العجائب من خلال تهوره وشواذ أفكاره وإرهابه، وهو يظن أنه يُحسن صنعاً، بل يظن نفسَه المؤمنَ الوحيد، والبقية كفرة.

● **ومن طبائع الحركة الحيوية أنها لا تستمر، بل في الغالب يعتريها هدوء بعد حركة طويلة أو قصيرة،** وهو قول الشاعر:

أرى كلَّ ريحٍ سوف تسكُن مرّةً
وكلَّ سماءٍ ذاتَ دَرٍّ ستُقلِعُ (٢٢)

وكأن هذه الظاهرة تبع لظاهرة "الكمات" الفيزياوية التي لا تكون فيها الطاقة مستمرة.

والنفس أيضاً، "لكل شِرّة فترة" أي بعد الدأب فتور.

والذي يهمنا من رصد ذلك هو الانطباع التخطيطي، وأن القائد المسلم مثلاً لا يرهق أصحابه بعمل متواصل، لأن التعب يحصل، والسكون ظاهرة حيوية بعد الحركة. كذلك أن لا تحصل له دهشة إن رأى وقوفاً عن السير، أو رخاوة.

وهذا هو المطلوب إزاء الظواهر الأخرى في سلوك الحركة: أن يماشي مقتضاها، ولسنا نرصدها ترفاً، بل للتكيّف مع مفاد هذه الظواهر.

وفي قول حذيفة رضي الله عنه: (إن للفتنة بَعَثات ووقفات.) (بَعَثات: أي إثارات وتهيّجات، جمع بَعثة.)(٢٣).

وهذا شاهد للتناوب والكمّات، ليس في المعنى فقط، بل في الاصطلاح اللغوي، بل هو للفيزياوي أوضح وأسهل من كلمة "الكمات"، لأن "البَعَثات" فيها معنى الكم زائداً معنى البعث والإرسال والومض، وأرى استعماله.

● **ومن طبائعها: أن البهتة التعجّبية الاستغرابية ساكنة، لكنها تولّد حركة قوية**، وذلك قول ابن الدُمَينة[٢٤]:

بنفسي وأهلي مَن إذا عَرَضوا لَهُ
ببعضِ الأذى: لم يَدْرِ كيفَ يُجيبُ
ولم يعتذر عُذرَ البريء ولم تزل
لَهُ بَهتَةٌ حتى يُقال: مُريبُ

فأخلاقه عالية، وقد أضمر العفاف والوُدّ، لذلك يحار جواباً، حتى يظنه الواهمُ مقترفاً لذنبٍ على الحقيقة، وهو البريء، ولكنه يعجب ويسأل نفسه: هل تسفل النفس الإنسانية إلى هذا الدرك فتتهم النقي زوراً؟

والحركة القوية هنا تكون عندما يتبين صدق المتهم وكذب الافتراء، فيكون اعتذار المستعجلين مضاعفاً، حتى كادوا بناءَ صومعة جريج الراهب من ذهبٍ بعدما هدموها، وعظمت مكانة يوسف عليه السلام بعدما نطقت المرأة وقالت "الآن حصحص الحق: أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين" يوسف/٥١ وبدأ طريقه نحو الملوكية والتمكين.

● **والطبيعة العشرون تتمثل في قابلية السكون للاستمرار، ويكون ثَمّ اعتياد، واسترسال سهل على النفس، وتلاؤم مع الأوضاع البيئية**، ويتم تشخيص ذلك من الحركة القلقة والحركة القلقة الغريبة النوع إذا غيّر الشخص موضع نومه المعتاد، فلا يكاد ينام، ولربما أصابه أرق، مما يكشف عن حساسية نفسية شديدة وراء هذه الحالة، وهي التي صورها الشاعر[٢٥] وكانت له موعظة منها فقال:

إنـــي أبثـــك مـــن حـــديثي
والحـــديـــثُ لـــــه شُـجونُ

ضيَّـــعتُ مـــوضـــع مـضجعي
وقـــتـا فـــفـارقـــني السُكونُ

قـــل لـــي فـــأول ليـــلةٍ
فـــي القـــبر كـــيف تُرى أكونُ

فتعبير "فارقني السكون" وصف لحركة القلق والضجر والتقلب على الوسادة حتى يكاد ينفجر، وما ثمَّ شيء غير تبديل الفراش والمكان.

☐ اقتباس نظرية ابن لطفي في التعامل مع مجموعات القيم لتوجيه الحركة الحيوية

☐ **وهذه الطبائع الحركية وحشود المعلومات والحقائق التي يقدمها علم حركة الحياة بحاجة إلى طريقة لجعلها جملة قرارات بيد محرك الحياة ينفذها أو يحمل غيره عل تنفيذها، ليحصل التحريك ويكون التشغيل وفق المعطيات المتاحة،** والتأمل يبدي أن هذه العملية صعبة وليست سهلة إذا أردنا لها قوة التأثير، وأنه لا بد من أسلوب علمي رصين لجمع الحقائق المتناثرة وربطها وجعلها في معادلات وعدد من الحُزم التطبيقية، ولربما تكون نظرية السُيحان Fuzzy theory هي الإطار لاكتشاف هذه القرارات التنفيذية العملية، واسم السيحان مأخوذ مما يحدث للماء عندما تسكبه فينتشر دون تحديد لمجرى أو مساحة، وهي نظرية نستعيرها من علم الاستراتيجيات الإدارية، إذ (قدم لطفي زادة أستاذ الأوتوماتيكية بجامعة كاليفورنيا نظرية "المعالم غير المحددة" سنة ١٩٦٣ كنظرية رياضية للإحاطة بالظواهر التي لا تتوافر لها قيمٌ محددة الأبعاد) وبها (أمكن التغلّب على الانتقادات الكثيرة التي وُجهت لنظرية القرارات الكلاسيكية أو نظرية المنفعة، وأمكن معالجة القيم كمجموعة بدلاً من قيمة واحدة، وهي الصعوبة الأساسية في نظرية القرارات الكلاسيكية، وعن طريق إيجاد ما سمي "دوالّ العضوية"

أمكن الوصول إلى القيم الأكثر واقعية، والهدف النهائي من ذلك هو زيادة المرونة والقدرة على التطبيق في نظريات الاختيار).

(هذه التطورات انتقلت بنظرية القرارات إلى عهد جديد يصفه "ستار" بما يلي: لقد أصبح قياس المنفعة يعتمد على أدوات من الرياضيات والمنطق معقدة، وأضحى القياس هو القضية الأساسية، فإذا كان من الممكن قياس المزايا الصافية للبدائل والوصول إلى قيمة واحدة لكل بديل: يكون القرار قد اتُخذ ضمنياً ويصبح الاختيار عملية بسيطة تافهة، وبالتالي يمكن القول بأن مشكلة البحث الآلي قد حلّت محل اتخاذ القرارات، والواقع أنه لا يوجد في هذه الحالات قرار ليُتخذ. فالقياس الفني متبوعاً بالبحث الآلي الذي صُمّم للتنبؤ بدرجات التفضيل يصبح بديلاً لاتخاذ القرارات.) (وبالتالي إذا أردنا أن نتحدث عن اتخاذ القرارات لا بد وأن نصفها بأنها عملية حركية معقدة معلقة على كثير من التفاعلات والتداخلات الجانبية، مليئة بانحرافات البحث وجمع وإهمال المعلومات، ومشبعة بالتشكك والغموض.)[٢٦].

(ويضيف "ستار": ولا يجب أن يُفهم من ذلك أنه ليس لعملية القرارات هيكل يمكن تحديد معالمه. بالتأكيد هذه العملية يستحيل تحديدها في شكل شجرة للقرارات، أو في شكل معادلة رياضية واحدة، ولكن هيكل العملية هو هيكل من الدوال قادرة على توليد سيرتها الذاتية في اتجاه القرار. إنّ التركيز هنا لا بد وأن يكون على العملية وليس على النتائج.

إنّ القرار الأخير يظهر أثناء عمليات من التعلّم والإدراك ومعالجة المعلومات وتعيين المعاني للموقف وما يترتب عليه.

من ذلك نستنتج أن ما اصطلح عليه باتخاذ القرارات عندما تكون هناك مقاييس منفردة أو معادلات بسيطة هو في الواقع ليس قرارات، وإنما اختيارات آلية، إنما يوجد القرار وتوجد عملية اتخاذ القرار عندما تعجز الوسائل الرياضية وما شابهها عن تبسيط الموقف إلى قيم منفردة.

هنا يستلزم الأمر ((التفاعل)) المستمر مع صاحب القرار خلال مراحل عملية الاختيار، سواء كان ذلك بغرض تحديد أدق لمعايير التفضيل، أو لتخفيض عدد البدائل، أو لتحديد أبعاد دالة العضوية للمعايير والقيم.)(٢٧).

□ وهذه الإطالة المملة والنقل الحرفي لنص إداري معقد لا بد منها، لأنها جُملة من الممارسة المنطقية التي تلتقي مع كثير مما قلناه وما سنقوله عن أنماط توظيف المعلومات الجزئية لحركات الحياة في وصايا محددة وصياغة ظواهر ومعادلات تنتظم الحقائق الحيوية الصغيرة، فجوامع الصور الحيوية والمحركات قسمناها إلى عشر موارد وحقول، وفي كل منها التفصيل الكثير، **ولا يمكن تجريد أثر القيمة الواحدة، لأنه ضئيل، لكن باندماجه مع غيره من القيم تتولد قيم أكبر ومعنى التحريك فيها أوضح**، ومن خلال تعدد أشكال ((الخلطة)) وتنويع المعادلات والأنساق التركيبية للمعاني: تتولد مجاميع قيم كثيرة، ونصل إلى درجة أنه يصعب الاختيار الميكانيكي منها من خلال الإحصاء فقط وبالشكل الحسابي المحض، لاعتماد كثير مها على الموقف النفسي والفكري والتأمل الفلسفي وحاسة العرض المنطقي ورؤية التماثل مع الحقائق الخَلقية الفيزياوية والانطباعات والمعايير الجمالية، **ولذلك نتجه نحو ترقب ما يتشكل في دواخل نفس الذي يحرك الحياة من مفاهيم وموازين وقناعات تدأب في التشكل تباعاً عنده، فيكون مجملها هو ((القرار)) وأسلوب المعالجة والتوظيف لمفردات ((الكم الحيوي)) من الصور والنبضات، وذلك هو موطن الالتقاء بين أنماط تحريك الحياة ونظرية ابن لطفي.**

والمفروض أن نقف طويلاً عند الوصف الآنف لعملية اتخاذ القرار وأنها (عملية حركية معقدة معلقة على كثير من التفاعلات والتداخلات) وهو وصف يطبع مباحث حركة الحياة بطابع مشابه، فالتفاعلات الحيوية كثيرة جداً، بعضها يتولد من العلوم والمعارف والتجارب المتراكمة، وبعضها واقع مرئي هو أجزاء صغيرة كثيرة تؤلف الصورة المرئية المحسوسة الفسيفسائية للحياة، وبعضها أقدار طارئة تقتحم على الترتيبات البشرية فتمنعها من التأثير أو تعدمها، وكثير منها

لمعات إبداعية تحدث فجأة فتبدل قناعة الذي يريد اتخاذ القرار أو تؤكد له توجهاته وتدعه بجزم، ومنها خلجات نفسية لا ضابط لورودها ومغزاها، ودارس القرار يواجه كل هذا الزخم الضاغط عليه من أجزاء المعاني والأقدار، وتجعل عقله يتأرجح عشرين مرة يميناً وشمالاً قبل ان تبدأ ميوله تتأكد نحو وجهة معينة، وإذ هو في الطريق إلى ذلك يهمل بعض المعلومات التي جمعها، ويبقى يناقل في ترتيب المعلومات، وفي منحها القيم، ويقدم ويؤخر، ويضبط الأوزان النسبية لتأثيرات كم كبير من النبضات قبل أن تتكون عنده حالة الثقة بمعنى إجمالي يقبله ويكون هو القاعدة والأساس لقراره، وهذا يكشف دقة وصف ابن لطفي لأحوال دارس القرار ومراحل تشكيل قناعاته، ويدل على أنه مارس ذلك عملياً بنفسه ولم يكتف بالافتراض، وأنه مصيب في دعواه أن الحسابات والإحصاء تكون في مرحلة توصيف الأجزاء والحركات، ولكن الموازنات التي تنتهي إلى تشكيل القرار إنما هي عمل فكري واجتهادي وذوقي خارج عن مفاد قوانين الإحصاء والوصف، وهو إلى الفراسة أقرب، وتقوده اللمعة الإبداعية وانطباعات داخلية تستعصي على الوصف، وهذا المقدار هو الذي يجعل الاختلاف عميقاً بين المجتهد المبدع والمقلد الميكانيكي في فهم طرائق صناعة القرار، وقد رأينا في المجال الدعوي وغيره رجالاً ليست لهم مُكنة ذاتية وإطلالة معرفية عامة، ولا لهم من علم الجمال نصيب، يرددون ما يقرأونه في الكتب التخطيطية بصورة حرفية جامدة، ويصلون إلى قرارات من طريق حسابي جامد وأوصاف صمّاء، فيأتون بالغرائب ويوجهون إلى قلوب الإبداعيين أهل الفهم النسبي المتغير سهاماً قاتلة وهم يحسبون أنفسهم سادة الاستراتيجية وسدنتها، وهيهات أن يأتي الجامد بصواب.

وقياساً على إفادات التخطيط الاستراتيجي الإداري البحت يمكن أن نقول أن الإقرار بهذه الطريقة النسبية والاعتراف بأهمية الانطباع الداخلي المتصاعد في نفس صانع القرار يؤدي إلى تعيين أحد العوامل المهمة في أسلوب اتخاذ القرار، وهو «درجة السيحان» ومداه ومرونته.

وهناك عامل ثان يتولد من "درجة التأكد" التي يحملها كل بديل يُعرض ويراد له أن يُبحث، وهذه قضية لا يمكن أن تكون مستقلة لوحدها، ولا سابقة على وقت البحث، بل يجب أن نفهم أن (التعرف على أبعاد الموقف وتقييم البدائل ينشأ ويوزع في نقاط متعددة منتشرة في مواقع متناثرة في المنظمة) أو بالأحرى في منظومة البحث، ومعنى ذلك بصورة أكثر دقة (أن الأهداف لا تحدد مقدماً كعملية مستقلة كمعايير للاختيار، ولكنها تُستقطب من خلال عملية الاختيار نفسها، أي أن تحديد الأهداف والتفضيل بين البدائل هي عملية واحدة)[٢٨]، وهذا يتطلب قاعدة فكرية وثقافية واسعة عند صانع القرار، ليستحضر البدائل في ساعة الحاجة إليها، وليست هي عملية خاضعة لبديل محدد سلفاً، فكما أن الحاجة أم الاختراع: فإن حالة إلغاء البدائل المبحوثة عندما يكتشف فيها صناع القرار عيوباً تجعلهم في حالة فراغ يجب أن يسارعوا إلى ردمه، وعندئذ تنقدح في أذهانهم بدائل ما كانوا يحومون حولها، إذا كان فكرهم مرناً، وأيضاً إذا كانوا شجعاناً لا يميلون مثل الموظف الحكومي إلى عدم المخاطرة خوفاً من الخطأ والعقاب المترتب عليه.

والاستراتيجيون يحاولون إصلاح هذا العيب الثقافي أو عيب عدم المخاطرة بإضافة عامل ثالث في أساليب اتخاذ القرار يسمونه عامل "المعايير"، أي هم لا يضيفون شيئاً جديداً، بل يقومون بدور الوكيل عن المتهيب ضعيف الثقافة فيلخصون له وصف الواقع والخيارات بأحكام أكثر تفصيلاً، هكذا أفهم قضية المعايير، وهي تقييد للمبدع فيما أرى، ولكن لا مانع من قبول ذلك، وأرى أنه لا حدود لهذه المعايير، وإنما هي قضية استنباطية وتكون على درجات من الأهمية، ولذلك ميزوها بوصف "الموضوعية" أيضاً وجعلوا من الموضوعية عاملاً رابعاً فصلاً لها عن الجانب الكمي في عدد المعايير، ولا أرى ذلك، لأنه لا قيمة لمعيار يخلو من موضوعية.

وهكذا تكون عوامل اتخاذ القرار ثلاثة: درجة السيحان، واستقطاب الأهداف أثناء البحث، وتحكيم المعايير الموضوعية، وبالنسبة للمسلم تقوم جميع الكتلة

الإيمانية والشرعية والتفسيرية للقرآن الكريم كقاعدة تحتية للمعايير الموضوعية التي يقيس بها، وإذا أخلى ذهنه من هدف وانتظره أثناء البحث، وهي عملية نفسية سهلة: فإن فن اتخاذ القرار عنده سينحصر في الاستعداد لالتقاط الصواب من خلال التأمل الحر السائح وانتظار ومضات الإبداع واستعراض الصور الوصفية لأجزاء الحياة ودرجات نبضاتها، وتكون كل القصة أسهل عليه من تعقيدات الاستراتيجيين، **وذلك الذي أريده لدعاة الإسلام حين وضعتُ لهم نظرية حركة الحياة.** ○

---

(١) لسان العرب ١/ ٣٦٦

(٢) تفسير ابن عطية الأندلسي ١/ ١١٦

(٣) (٤) لسان العرب ١/ ٩٦٦/ ١٢٥٧

(٥) لسان العرب ٢/ ٧٥٢

(٦) موسوعة المورد ٦/ ٢١

(٧) روضة العقلاء/ ٢٤

(٨) العقد الفريد ٦/ ١٦٩

(٩) (١٠) روضة العقلاء/ ١٥٩/ ١٩١

(١١) الخصائص في اللغة لابن جني ٢/ ١٧٥

(١٢) فحوى مقال في مجلة العربي عدد ٥٧٠ كتبه الدكتور عادل زيتون.

(١٣) الرسالة القشيرية/ ٥٤

(١٤) (١٥) لسان العرب ٢/ ٨٧٨/ ٨٨٣

(١٦) البداية والنهاية ٩/ ١٩٣

(١٧) (١٨) لسان العرب ١/ ١٠٩٨/ ٥٦

(١٩) (٢٠) موسوعة المورد ٨/ ١٢٩، ٩/ ٢٧، ٥/ ٢٠٠

(٢١) العقد الفريد ٦/ ٦

(٢٢) (٢٣) لسان العرب ١/ ٢٢١/ ٢٣٠

(٢٤) العقد الفريد ٦/ ٨٠

(٢٥) بستان الواعظين لابن الجوزي/ ٢١٠

(٢٦) (٢٧) (٢٨) الاستراتجيات الإدارية للدكتور محمد حامد سليم/ ٧٤/ ٧٦/ ٧٧